سورة النجم

هى مكية إلا آية ٣٢ فمدنية ، نزلت بعد سورة الإخلاص ، وعدد آيها ثنتان وستون .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إن السورة قبلها ختمت بقوله : وإدبار النجوم ، وبدئت هذه بقوله : والنجم إذا هوى .

(٢) إن السورة قبلها ذكر فيها تقوّل القرآن وافتراؤه ، وذكر هذا فى مفتتح هذه السورة .

(٣) إنه ذكر فى التى قبلها أن ذرية المؤمنين تبع لآبائهم ، وفى هذه ذكر ذرية اليهود فى قوله : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » .

(٤) إنه قال هناك فى المؤمنين : « أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقال هنا فى الكفار « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

وهى كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبى صلى الله عليه وسلم قراءتها ، فقرأها فى الحرم والمشركون يسمعون ، وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى « أن أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافرا وهو أمية بن خلف» .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ

عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) .

شرح المفردات

المراد بالنجم : جنس النجوم إذا غربت أو صعدت ، يقال هوى النجم هويًا (بالفتح) أى سقط وغرب ، وهويا : (بالضم) إذا علا وصعد ، ماضلّ : أى ماحاد عن الطريق المستقيم ، صاحبكم : أى مصاحبكم والتعبير عنه صلى الله عليه وسلم بعنوان المصاحبة لهم إيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم خُبرا ببراءته مما نسب إليه ، وباتصافه بالهدى والرشاد ، فإن طول صحبتهم له ومشاهدتهم لشئونه العظيمة تقتضى ذلك ، ففى هذا تأكيد لإقامة الحجة عليهم ، وما غوى : أى وما اعتقد باطلا ، والخطاب فى هذا لقريش ، وما ينطق عن الهوى : أى مايتكلم بالباطل ، والمراد بشديد القوى جبريل عليه السلام ، ذو مرة : أى ذو حصافة عقل وقوة عارضة ، قال قُطْرب : العرب تقول لكل من هو جزل الرأى حصيف العقل : هو ذو مرة . من قولهم أمررت الحبل : أى أحكمت فتله ، فاستوى : أى فاستقام على صورته التى خلقه الله عليها عند حراء فى مبادى النبوة ، وهو بالأفق الأعلى : أى بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، ثم دنا : أى ثم قرب ، فتدلى : أى فنزل

من قولهم تدلت الثمرة ، ومنه الدوالى وهى الثمر المعلق كعناقيد العنب ، والقاب مقدار ما بين المقبض والسّيَة ، ولكل قوس قابان ، والعرب تقدر الأطوال بالقوس والرمح وبالذراع والباع والخطوة والشبر والإصبع ، أو أدنى : أى أقرب من ذلك ، والمراد بالفؤاد فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ، ما رأى أى ما رآه ببصره ، أفتمارونه على مايرى : أى أفتجادلونه على مايراه معاينة ، نزلة أخرى : أى مرة أخرى. سدرة المنتهى : هى شجرة نبق قالوا إنها فى السماء السابعة عن يمين العرش ، جنة المأوى : أى الجنة التى يأوى إليها المتقون يوم القيامة ، يغشى : يغطى ، ما زاغ البصر : أى ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومُكّن منها وما مال يمينا ولا شمالا ، وما طغى : أى ما جاوز ما أمر به ، آيات ربه الكبرى : أى عجائبه الملكية والملكوتية فى ليلة المعراج .

المعنى الجملى

أقسم ربنا بخلق من مخلوقاته العظيمة التى لا يعلم حقيقتها إلا هو ، وهى نجوم السماء التى تهدى السارى فى الفلوات ، وترشده إلى البعيد من المسافات — إن محمدا صاحبكم نبىّ حقا وما ضلّ عن طريق الرشاد ولا اتبع الباطل ، ولا يتكلم إلا بوحى يوحيه الله إليه ويعلمه إياه جبريل شديد القوى ، ولقد رآه مرتين على صورته التى خلقه الله عليها بأجنحته وأوصافه الملكية : مرة بغار حراء فى بدء النبوة ، وأخرى ليلة المعراج حين عرج به إلى السماء ورأى من عجائب صنع الله ما رأى مما استطاع أن يخبركم به ومما لم يستطع ذلك ، فكيف بكم تجادلونه فيما أخبركم به وتقولون طورا : إنه مجنون ، وطورا آخر إنه كاهن ، وطورا ثالثا إنه شاعر ، وما كل هذا بالذى ينطبق على أوصافه وهو صاحبكم وأنتم أعلم بحاله ، فحق عليكم أن تسمعوا قوله ، وأن تطيعوا أمره فتفوزوا برضوان من ربه .

الإيضاح

(والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى) أى قسما بمخلوقاتى العظيمة وهى النجوم التى تسير فى مداراتها ولا تعدو أفلاكها ، والتى تهتدون بها فى القيافى والقفار ، فى حلكم وترحالكم ، فى سفركم وحضركم ، وفى البحار ، ولها لديكم منزلة عظمى فى حياتكم المعيشية — إن محمدا نبى حقا وما حاد عن سبيل الحق ولا سلك سبيل الباطل .

وقد خاطب سبحانه بهذا القَسَم العرب الذين يعرفون ما للنجوم من جزيل الفضل عليهم فى تعيين المواسم والفصول ، ليستعدوا للنُجْعة ، ويرتادوا الكلأ بعد سقوط المطر ، ويزرعوا ما يتسنى لهم أن يزرعوه ، ويتيامنوا ببعضها ويتشاءموا ببعض آخر .

إلى أن القَسَم بها ينبهنا إلى أن هناك عوالم وأجراما علوية يجب علينا أن نتعرف أمرها ، لنستدل بها على عظيم قدرة مبدعها وبديع صنعه .

ولقد أثبت العلم حديثا ما يدعو إلى العجب من أحوال هذه الأجرام ، وسرعة سيرها ، وكبير حجمها ، فقد علم أن سير نور الكوكب ٣٠٠ ألف كيلو فى الثانية ، ومثله سير الأمواج اللاسلكية ، وكلاهما يجرى حول الأرض فى سبع ثانية مرة واحدة ، ويجرى حول الكون كله فى نحو مائة مليون سنة ، فنسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ما عرف من الكون كنسبة سبع ثانية إلى مائة مليون سنة .

والنظام الشمسى يشتمل على الشمس وتسعة سيارات تدور حول أكثرها أقمار ، وهذه الشمس وعالمها جزء من عالم المجرة ، والمجرة فيها نجوم تبلغ نحو ٣٠ ألف مليون نجم كلها شموس كشمسنا أو أكبر أو أصغر . ويقدرون عمر الشمس بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وعمر الأرض بنحو ألفى مليون سنة ، وعمر المياه عليها بنحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الإنسان بنحو ٣٠٠ ألف سنة .

وإن شمسنا التى تزيد على أرضنا ألف ألف مرة وثلثمائة ألف مرة هى كوكب له توابع وسيارات ، وهذا الكوكب وتوابعه واحد من ثلاثين ألف مليون شمس ، وهذه كلها تكوّن مَجَرتنا ، وهذه المجرة لها نظائر ، فسبحان الخلاق العليم الذى لا يعلم جنوده إلا هو .

والخلاصة — إن الرسول صلى الله عليه وسلم راشد مرشد تابع للحق ليس بضالّ ولا هو يسلك الطريق بغير علم ، ولا هو غاوٍ يعدل عن الحق قصدا إلى غيره ، وبهذا تزه الله رسوله وشرعه عن مشايعة أهل الضلال من اليهود والنصارى الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه ، فهو فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد .

ثم بيّن السبب فى عدم ضلاله وغوايته فقال :

(وما ينطق عن الهوى) أى كيف يضل ويغوى ، وهو لا ينطق عن الهوى ، وإنما يضل من كان كذلك ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » .

ثم أكد هذا بقوله :

(إن هو إلا وحى يوحى) أى إنما يقول ما أمر أن يبلغه إلى الناس كاملا موفورا بلا زيادة ولا نقصان .

روى أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : « كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتنى قريش فقالوا : إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله بشر يتكلم فى الغضب ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منى إلا الحق » .

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا أقول إلا حقا » قال بعض أصحابه فإنك تداعبنا يا رسول الله ، قال : « إنى لا أقول إلا حقا » .

ويرى بعض المفسرين أن قوله : ما ضل صاحبكم — ردٌّ لقولهم : إنه مجنون ،

وقوله: وما غوى ـ ردّ لقولهم إنه شاعر : أى ليس بينه و بين الغواية تعلق وارتباط ، وقوله : والشعراء يتبعهم الغاوون ، وقوله : وما ينطق عن الهوى ـ ردّ لقولهم : هو كاهن وقوله : إن هو إلا وحى يوحى تأكيد لما تقدم ، أى فلا هو بقول كاهن ولا هو بقول شاعر .

(علّمه شديد القوى) أى علم صاحبكم جبريلُ عليه السلام وهو شديد القوى العلمية والعملية ، فيعلم و يعمل ، ولا شك أن مدح المعلِّم مدح للمتعلم .

وفى هذا رد عليهم فى قولهم : إن هو إلا أساطير الأولين ، سمعها وقت سفره إلى الشام .

والخلاصة — إنه لم يعلِّمه أحد من الناس، بل علمه شديد القوى، والإنسان خلق ضعيفا لم يؤت من العلم إلا قليلا ـ إلى أنه موثوق بقوله ، لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل ، وكذلك هو موثوق بحفظه وأمانته ، فلا ينسى ولا يحرّف .

(ذو مِرَّة) أى ذو حصافة فى العقل ، فالوصف الأول إشارة إلى قوة الفعل ، وهذا وصف بقوة النظر وظهور الآثار البديعة منه .

والخلاصة — إنه يجمع بين القوى النظرية والقوى الجسمية كما روى أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذى تحت الثرى وحملها على جناحيه ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح بثمود فأصبحوا جاثمين .

وإنا لنؤمن بهذا على أنه من عالم الغيب ونكتفى بما جاء فى كتابه تعالى ولا نزيد عليه .

وإن علماء الأرواح فى أوربا الآن أصبحوا يؤمنون بقوى عالم الروح و بما لها من خوارق العادات بالنظر إلى عالمنا . قال أوليفر لودج : إنى أصبحت موقنا بأنا محوطون بعالم نحن بالنسبة إليه كالنمل بالنسبة لنا ، وهم يساعدوننا و يحافظون علينا ، ثم قال : وقفت على هـــذا بطريق علمى (يريد تحضير الأرواح) ثم قال : فإذا ما قال القدّيسون إنهم رأوا الملائكة أو أنهم رأوا الله ، فكل ذلك حق لا مرية فيه اهـ .

هذا ولا شك من عجائب القرآن ، فإن ما جاء فيه مما يتعلق بعالم الأرواح أصبح علوما تدرس وتذاع بين الناس باعتبارها علوما روحية وكشفا حديثا ، صدق ربنا « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

فالقوى الجسمية والعقلية للعالم الروحى ظهرت بطريق استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى ، إذ فيه انخلاع للنفس عن البدن انخلاعًا جزئيا أو كليا وهى مربوطة به ولها اتصال بالعوالم الروحية .

(فاستوى وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى) أى فاستقام جبريل على صورته التى خلقه الله عليها حين أحب رسوله صلى الله عليـــه وسلم أن يراه كذلك ، فظهر له فى الأفق الأعلى وهو أفق الشمس ، فملأه ثم أخذ يدنو من رسوله الله صلى الله عليه وسلم ويتدلى : أى يزيد فى القرب والنزول حتى كان منه مقدار قوسين أو أقرب على تقديركم وعلى مقدار فهمكم ، فأوحى إلى عبده ورسوله ما شاء أن يوحيه إليه من شئون الدين . ولا غرو فإن ظهور الأرواح فى صورة مرئيـة أصبح الآن معروفا ، وقد قص علماء الروح عجائب وغرائب وأصبح فى طوقهم أن يظهروا الروح فى صور بشرية وصور نورية وتخاطبهم حين التنويم المغناطيسى ، وإذا صح ذلك للعامة فليكن ذلك للقدّيسين والأنبياء بالأولى بطريق يشاكل مقامهم ، ولا تتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلَّى والمتجلَّى عليه وظهوره فى صورة مرئية يرجع إلى قوته وشدته ، وقوله : فأوحى إلى عبده ما أوحى ، يرجع إلى قوته العلمية .

ولما كان الإنسان كثيرا ما يظن أنه قد تخيل ما رآه ويكذب قلبه ما ظهر له ، حتى قال علماء الأرواح : إنهم لما خاطبوا الأرواح قالت لهم : إنكم كثيرا ما يظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتنسبونها إلى خداع الحواس ـ أعقب سبحانه هذا بما يدل على أنه صلى الله عليـه وسلم لم يقم بنفسه أن هذا تخيل ولا أنه وَهْم فقال :

(ما كذب الفؤاد ما رأى) أى ما كذب فؤاده ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام : أى إن فؤاده صلى الله عليه وسلم ماقال لما رآه ببصره لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره .

والخلاصة — إنه لما قال : إن هو إلا وحى يوحى أكد هذا المعنى وفصله بقوله : علمه شديد القوى ، ليبين أنه ليس من الشعر ولا من الكهانة فى شىء ، ولما قال : فاستوى وذكر قيامه بصورته الحقيقية أكد أن مجيئه بصورة دِحْيَة الكلبى لايعمى وصفه ، إذ قد عرفه بشكله الحقيق من قبل ، فلا يشتبه عليه ، وقوله : ثم دنا فتدلى تتميم لحديث نزوله عليه السلام وإتيانه بالمنزّل ، وقوله : ما كذب الفواد ما رأى ، بين به أنه لما عرفه وحققه لم يكذبه فؤاده بعد ذلك فى أنه جبريل ولو تصور بغير تلك الصورة .

(أفتمارونه على ما يرى ؟) أى أفتكذبونه وتجادلونه فيما رآه بعينه من صورة جبريل عليه السلام له .

(ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى) أى ولقد رأى النبىُّ صلى الله عليه وسلم جبريلَ فى صورته التى خلقه الله عليها عند شجرة النبق التى ينتهى إليها علم كل عالِم وما وراءها لايعلمه إلا الله قاله ابن عباس .

وقد يكون المراد بالمنتهى الله عز وجل أى سدرة الله الذى إليه المنتهى كما قال سبحانه « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » وعند هذه السدرة الجنة التى يأوى إليها المتقون يوم القيامة قاله الحسن البصرى .

وعلينا أن نؤمن بهذه الشجرة كما وصفها الله ، ولا نعين مكانها ولا نصفها بأوصاف أكثر مما وصفها به الكتاب الكريم ، إلا إذا ورد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ما يبين ذلك ويثبت لدينا بالتواتر ، لأن ذلك من علم الغيب الذى لم يؤذن لنا بعلمه .

روى أحمد ومسلم والترمذى وغيرهم أنها فى السماء السابعة ، نبتها كقِلال هَجَر ، وأوراقها مثل آذان الفيلة ، يسير الراكب فى ظلها سبعين خريفا لايقطعها .

والمشاهد فى الدنيا أن النبات يعيش إذا وجد التراب والماء والهواء ، ولكن لاعجب فالله يخلقه فى أى مكان شاء ، كما أخبر عن شجرة الزقوم أنها تنبت فى أصل الجحيم .

وقُصارى ما سلف — إن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته الحقيقية مرتين : مرة وهو فى غار حراء فى بدء النبوة ، والثانية فى ليلة المعراج ولم يكن ذلك فى الأرض بل كان عند شجرة نبق عن يمين العرش وهى فى منتهى الجنة : فمى آخرها ، وعلم الملائكة ينتهى إليها .

وقد تقدم أن الصحيح أن الصعود إلى الملإ الأعلى كان روحيا لاجسمانيا كما روى عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم .

(إذ يغشى السدرة ما يغشى) أى رآه حين غطى السدرة ما غطاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ، ومن الإشراق والحسن ، ومن الملائكة ؛ وقد أبهم ذلك الكتاب الكريم فعلينا أن نكتفى بهذا الإبهام ولا نزيده إيضاحاً بلا دليل قاطع ولا حجة بينة ، ولو علم الله الخير لنا فى البيان لفعل .

(ما زاغ البصر وما طغى) أى ما مال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومُكّن منها ، وما جاوزها إلى رؤية ما لم يؤمر برؤيته .

والخلاصة — إنه رأى رؤية المستيقن المحقق لما رأى .

(لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى ولقد رأى الآيات الكبرى من آيات ربه وعجائبه الملكوتية .

روى البخارى وابن جرير وابن المنذر فى جماعة آخرين عن ابن مسعود أنه

قال في الآية : رأى رفرفا أخضر من الجنة قد سد الأفق ، وعن ابن زيد أنه رأى جبريل بالصورة التي هو بها .

وعلينا ألا نحصر ما رآه في شيء بعينه بعد أن أبهمه القرآن ، إذ هو قد رأى من الآيات الكبرى ما يجل عنه الحصر والاستقصاء .

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦)

شرح المفردات

اللات والعزى ومناة : أصنام كانت تعبدها العرب في جاهليتها ، فاللات كانت لثقيف . وأصل ذلك أن رجلا كان يلت السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ثم صنعوا له صورة وعبدوها ، والعزى : شجرة بغطفان كانوا يعبدونها ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم بعد الإسلام خالد بن الوليد ليقطعها ، فجعل يضربها بفأسه ويقول :

يا عُزَّ كفرانك لا سبحانك ... إني رأيت الله قد أهانك

ومناة : صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وكانت دماء النسائك تمنى عندها : أي تراق ، والأخرى : أي المتأخرة الوضيعة القدر كما جاء في قوله : « وَقَالَتْ أُخْرَاهُمْ

لِأُولَاهُمْ » أى وقالت وضعاؤهم لأشرافهم ورؤسائهم ، وقد جاء لفظ (الأخرى) بهذا المعنى بين المصريين فيقول : هو الآخر وهى الأخرى ، يريدون الضعة وتأخر القدر والشرف ، ضيزى : من ضزته حقه (بالضم والكسر) أى نقصته ، والمراد أنها قسمة جائرة غير عادلة قال امرؤ القيس :

ضازت بنو أسد بحكمهم إذ يجعلون الرأس كالذنب

المعنى الجملى

بعد أن بين ما رآه محمد صلى الله عليه وسلم من العجائب ليلة المعراج ـ قال للمشركين ماذا رأيتم فى هذه الأصنام ؟ وكيف تحصرون أنفسكم فى العالم المادى وأصنامه ، وتقطعون على أنفسكم طريق التقدم والارتقاء ، وإن النفس لا ترقى إلا بما استعدت له ، فإذا وقفت النفوس عند هذه المادة وتلك الأصنام لم يكن لها عروج إلى السماء ، ولاسيما أن هذه الأصنام لا تشفع لهم عند ربهم ولا تجديهم نفعا .

الإيضاح

(أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ؟) أى أفبعد أن سمعتم ما سمعتم من آثار كمال الله عز وجل وعظمته فى ملكه وملكوته ، وجلاله وجبروته ، وأحكام قدرته ونفاذ أمره ، وأن الملائكة على رفعة مقامهم وعلوّ قدرهم ينتهون إلى السدرة ويقفون عندها ـ تجعلون هذه الأصنام على حقارة شأنها شركاء لله مع ما علمتم من عظمته .

وفى هذا تقريع شديد ، وتوبيخ عظيم ، وتأنيب لا إلى غاية ، وإنّ عاقلا لا ينبغى أن يخطر بباله مثل هذا ، ويمتهن رأيه إلى هذا الحد .

روى أن أبا سفيان قال يوم أحد : لنا العُزّى ولا عُزّى لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

وبعد أن أنّبهم على سخف عقولهم ، وسفاهة أحلامهم ، بعبادتهم الأصنام التى كانوا يزعمون أنها هيا كل للملائكة ، والملائكة بنات الله - وبخهم على نسبة البنات إليه سبحانه وهم لا يرضونها لأنفسهم فقال :

(ألكم الذكر وله الأنثى ؟) أى أتجعلون له ولدا وتجعلون هذا الولد أنثى ؟ وتختارون لأنفسكم الذكران ، على علم منكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون ، والله كامل العظمة ، فكيف تنسبون إليه الناقص ، وأنتم على نقصكم تنسبون إلى أنفسكم الكامل.

(تلك إذًا قسمة ضيزى) أى تلك قسمة جائرة غير مستوية ، ناقصة غير تامة لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها .

ثم أنكر عليهم ما ابتدعوه من الكذب والافتراء فى عبادة الأصنام وتسميتها آلهة فقال :

(إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) أى إن هذه الأصنام التى تسمونها آلهة - هى أسماء فحسب وليس لها مسميات هى آلهة البتة ، كما تزعمون وتعتقدون أنها تستحق أن يعكف على عبادتها وتقديم القرابين إليها ، وليس لكم من حجة ولا برهان تؤيدون به ما تقولون ، وإنما قلّد فيها الآخر الأول ، وتبع فى ذلك الأبناء الآباء .

ولا يخفى ما فى ذلك من التحقير ، كما تقول : ما هو إلا اسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة لها شأن وقدر .

ونحو الآية قوله تعالى « مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً » الآية .

ثم أكد ماسلف بقوله :

(إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) أى ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظوظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين .

والخلاصة — إنكم تعبدون هذه الأصنام توهما منكم أن ماعليه آباؤكم حق ، وإشباعا لشهوات أنفسكم .

ثم بين أنه ما كان ينبغى لهم ذلك ، لأنه قد جاءهم ماينبههم إلى سوء رأيهم وعظيم غفلتهم فقال :

(ولقد جاءهم من ربهم الهدى) أى هم يتبعون ما كان عليه أسلافهم و ينقادون إلى آرائهم ، وقد أرسل الله إليهم الرسول بالحق المنير ، والحجة الواضحة ، وقد كان ينبغى أن يكون لهم فى ذلك مزدجر ، لـكنهم أعرضوا عنه وتولوا « كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » .

و بعد أن بين أن جعلهم الأصنام شركاء لله لا يستند إلى دليل ، بل لا يستند إلا إلى التشهى والهوى واتباع الظن — ذكر أن هذا لا يجديهم نفعا ، فهى لا تشفع لهم عند الله ، ولا يظفرون منها بجدوى فقال :

(أم للإنسان ماتمنى ؟ فلله الآخرة والأولى) أى ماتتمنونه من شفاعة الآلهة لـكم يوم القيامة لن يكون ، ولن تجديكم فتيلا ولا قطميرا ، فإن كل مافى الدنيا والآخرة فهو ملك له تعالى ولا دخل لهذه الأصنام فى شىء منه .

وهذا تيئيس لهم من أن ينالوا خيرا من عبادتها والتقرب إليها ولا تكون وسيلة لهم عند ربهم .

ثم حرمهم فائدة عبادتها من وجه آخر فقال :

(وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) أى كثير من الملائكة لاتفيد شفاعتهم شيئا ولا تنفع إلا إذا أذن لهم ربهم بها لمن يشاء ممن أخلصوا له ، وأخبتوا له فى القول والفعل فرضى عنهم ، و إذا كان هذا حال الملائكة وهم عالم روحى لهم القرب عند ربهم والزلفى لديه ، فما بالـكم بأصنام أرضية ميتة لاروح فيها ولاحياة ، فهى بعيدة كل البعد عن الذات الأقدس .

وخلاصة ذلك — إنه لامطمع لكم فى شفاعة هذه الأصنام ، ولا تجديكم نفعا فى هذا اليوم .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) .

المعنى الجملى

بعد أن عاب عليهم عبادتهم للأصنام والأوثان ، وادعاءهم أن لله ولدا من الملائكة ، ورد عليهم بأن هذه الأصنام التى جعلوها آلهة لاتملك لنفسها نفعا ولاضرا فما هى إلا أسماء ليس لها مسميات هى آلهة كما تدّعون ، فلا هى تشفع لهم ولا تجديهم فتيلا ولاقطميرا ؛ فإن الملائكة الكرام لايشفعون عند ربهم إلا إذا أذن لهم ورضى عمن يشفعون له ، فأجدر بمثل هؤلاء ألا يستطيعوا شفاعة عنده .

وهنا عاب عليهم هَنة أخرى ، وهى تسميتهم الملائكة بنات الله ، وأبان أن هذه مقالة شنعاء لاتصدر إلا عمن لايؤمن بالآخرة والحساب والعقاب ، فمن أين أتاهم أن لله أولادا هن ملائكته ؟ والولد إنما يطلب للمساعدة وقت الحاجة ، ولحسن الأحدوثة ، ولحفظ الصيت ، والله غنى عن كل ذلك ، ولو صح مايقولون ، فلم اختاروا له البنات دون البنين ؟ أفلا يساوونه بأنفسهم ويجعلون له ولدا من الذكور لامن الإناث ؟ فما هذا منهم إلا أباطيل لاتغنى عن الحق شيئا ، وعليك أيها الرسول أن

تعرض عن هؤلاء الذين لاهمّ لهم إلا جمع حطام الدنيا ، والتمتع بزخرفها ، وإن ربك هو العليم بحالهم ، وما تخفى صدورهم ، وسيحاسبهم على النقير والقطمير ، ويجازيهم على مايقولون ويعتقدون جزاء وفاقا .

الإيضاح

(إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) أى إن هؤلاء الذين لايؤمنون بالبعث وما بعده من أحوال الدار الآخرة على الوجه الذى بينته الرسل ، يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء وجهالة جهلاء وهى قولهم : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وإنما جعلها مقالة من لايؤمن، للإشارة إلى أنها بلغت من الفظاعة حدا لايمكن معه أن تصدر من موقن بالجزاء والحساب ، فقد اشتملت على جريمتين أولاها نسبة الولد إلى الله ، ثانيتهما أن الولد أنثى تفضيلا لأنفسهم على بارئهم وموجدهم من العدم .

(وما لهم به من علم) أى وليس لهم بذلك برهان ولا أتى لهم به وحى حتى يقولوا ما قالوا .

ثم أكد نفى علمهم الحق بذلك فقال :

(إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايغنى من الحق شيئا) أى إن معرفة الشىء معرفة حقيقية يجب أن تكون عن يقين لاعن ظن وتوهم ، وأنتم لاتتبعون فيما تقولون فى هذه التسمية إلا الظن والتوهم ، وليس هذا من سبيل العلم فى شىء ، وقد جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » .

والخلاصة — إن مثل هـذا الاعتقاد يجب أن يكون عن دليل عقلى والعقل لا يركن إليه فى مثل هذا ، أو عن وحى ولم يصل إليهم منه شىء يخبرهم بما يقولون .

ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم فقال :

(فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) أى فأعرض عن مثل هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابنا ولم يأخذوا بما فيه مما يوصل إلى سعادتهم فى المعاش والمعاد من المعتقداب الحقة وقصص الأولين المذكّرة بأمور الآخرة وما فيها من نعيم مقيم أو عذاب أليم ، واقتصروا على شئون الدنيا ورضوا بزخرفها وجَدّوا فى بلوغ أسمى المراتب فيها كما فعل النضر بن الحرث والوليد بن المغيرة وأضرابهما .

والخلاصة — لاتبالغ فى الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا وانهمك فى أمور الدنيا ، وجعلها منتهى همته ، وأقصى أمنيته ، وقصارى سعيه ، فلا سبيل إلى إيمان مثله ، فلا تبخع نفسك على مثله أسفا وحزنا كما قال : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ لاَ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » .

ثم أكد مامضى من أن همتهم مقصورة على الحياة الدنيا بقوله :

(ذلك مبلغهم من العلم) أى إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا باللذات ، ويتصرفوا فى التجارات ، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة فى المال ، وسعة فى الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يُعْنَوْن بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دَبْرَ أذنهم ، ووراء ظهورهم ، لايعرفون منها قبيلا من دَبيرٍ .

روى أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا دار من لادار له ، ومال من لامال له ، ولها يجمع من لاعقل له » وفى الدعاء المأثور « اللهم لاتجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » .

ثم ذكر السبب فى الأمر بالإعراض عنهم فقال :

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) أى إن ربك هو العليم بمن واصل ليله بنهاره ، وصباحه بمسائه ، مفكرا فى آياته فى الكون ، وفيما جاء على ألسنة رسله ، حتى اهتدى إلى الحق الذى ينجيه فى آخرته ، ويبلغه رضوان ربه ، ويبلغه سعادة الدنيا بالسير على السنن التى وضعها فى خليقته ، فاحتذى حذوها ، وسار على إثرها — وبمن حاد عن طريق النجاة وجعل إلهه هواه وركب رأسه ، فلم يلو على شىء مما جاء به الداعى الناصح الأمين ، وإنه لمجازٍ كلًّا بما كسب وا كتسب ، وسيجزيه على الجليل والحقير ، والصغير والكبير ، على حسب ما أحاط به واسع علمه ، وعلى مقدار فضله على من أخبت إليه كما قال : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » ونكاله بمن دسّى نفسه واجترح السيئات ، مصداقا لقوله : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

والخلاصة — إن هؤلاء قوم لاتجدى فيهم الذكرى ، ولا تؤثر فيهم العظة ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢)

شرح المفردات

بما عملوا : أى بالعقاب على عملهم ، بالحسنى : أى بالمثوبة الحسنى وهى الجنة ، كبائر الإثم : ما يكبر عقابه كالزنا وشرب الخمر ، والفواحش : واحدها فاحشة وهى ماعظم قبحها من الكبائر ، واللمم : ماصغر من الذنوب كالنظرة والقبلة ، وهو فى اللغة اسم لما قلّ قدره ومنه لَمَّة الشعر ، وقيل اللمم : الدنو من الشىء دون ارتكابه من قولهم ألممت بكذا : أى قاربت منه ، وعليه فالمراد به الهمّ بالذنب وحديث النفس دون حدوث فعل ، ومن ثم قال سعيد بن المسيِّب : هو ماخطر على القلب ، والأجنة : واحدها جنين ، وهو الولد مادام فى البطن .

المعنى الجملى

بعد أن أمره سبحانه بالإعراض عن المشركين مع شدة ميله إلى إيمانهم ، وتطلعه إلى هدايتهم ، وتعلقه بصلاحهم و إرشادهم وهم قومه وعشيرته ، وأبان له أن هؤلاء قوم انصرفوا عن النظر إلى الحق ، ووجهوا همّهم إلى زخرف الدنيا ، وأن منتهى علمهم التصرف فى شئونها ، فهى قبلتهم التى إليها يحجون ، ومطمح أنظارهم الذى إليه يرنون ، وذكر أنه هو العليم باستعدادهم ، وأنهم قوم ضالون لايصل الحق إلى شغاف قلوبهم ، ولا يلتفتون إليه بعيونهم .

ذكر هنا أنه تعالى لايهملهم ، بل سيجزيهم بسوء صنيعهم ، وهو العليم بما فى السموات والأرض ، فلا يترك عباده هملا بل يجازيهم بعدله ، فيثيب المحسن بالجنة ، و يعاقب المسىء على سوء صنيعه بما هو أهله ، ثم أردف ذلك بذكر أوصاف المحسنين وأنهم هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، ولا يقع منهم إلا اللمم من صغائر الذنوب الفَيْنَة بعد الفَيْنَة ؛ و يتوبون منه ولا يصرون عليه ، ثم حذر عباده بأنه لاتخفى عليه خافية من أمورهم من حين أن كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم إلى أن

يموتوا ، فيعلم المطيع من العاصى ، فلا حاجة للعبد إذاً فى مدح نفسه بفعل الطاعات ، واجتناب السيئات .

الإيضاح

(ولله مافى السموات وما فى الأرض) أى إن ما فى السموات وما فى الأرض تحت قبضته وسلطانه ، وله التصرف فيه خلقا وملكا وتدبيرا ، فهو العليم به لاتخفى عليه خافية من أمره ، فلا تظنوا أنه يهمل أمركم ، كلا ، فإنه مجازٍ كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، وهذا ماعناه بقوله سبحانه :

(ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى فهو يجازى على حسب علمه المحيط بكل شىء — المحسنَ بالإحسان ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويمتعه بنعيم لايخطر على قلب بشر ، والمسىء بصنيع ما أساء ، وبما دسّى به نفسه من ضروب الشرك والمعاصى ، وبما ران على قلبه من كبائر الذنوب والآثام ، وقد أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة .

ثم ذكر أوصاف المحسنين فقال :

(الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) أى إن المحسنين هم الذين يبتعدون عما عظم شأنه من كبائر المعاصى كالشرك بالله وقتل النفس التى حرم الله بغير حق والزنا ، ولا تقع منهم إلا صغائرها ، فيتوبون إلى ربهم ويندمون على مافرط منهم .

ونحو الآية قوله : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً » .

والمشهور أن الكبائر سبع وروى ذلك عن علىّ كرم الله وجهه واستدلوا له بما روى فى الصحيحين « اجتنبوا السبع الموبقات : الإشراك بالله تعالى والسحر وقتل

النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وروى الطبرانى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلا قال له : الكبائر سبع ، فقال هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار .

وقيل الكبيرة : كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب أو حدّ فى الدنيا ، أو أقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أو ندم ، أو ترتب عليه مفاسد كبيرة ، ولو كان فى نظر الناس صغيرا ، فمن أمسك إنسانا ليقتله ظالم ، أو دل العدو على عورات البلاد فقد فعل أمرا عظيما ، فيكون أكل مال اليتيم إذا قيس على هذين قليلا مع أنه من الكبائر .

ثم ذكر مايدفع اليأس عن صاحب الكبيرة فى غفران ذنبه فقال :

(إن ربك واسع المغفرة) فيغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، وله أن يغفر مايشاء من الذنوب بعد التوبة الصادقة ، والندم على مافرط من مرتكبها إذا أخبت إلى ربه ، وتجافى عن ذنبه .

ونحوه قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

ثم أكد ماقبله وقرره بقوله :

(هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) أى هو بصير بأحوالكم ، عليم بأقوالكم وأفعالكم حين ابتدأ خلقكم من التراب ، وحين صوركم فى الأرحام على أطوار مختلفة وصور شتى .

(فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) أى فإذا علمتم ذلك فلا تثنوا على

أنفسكم بالطهارة من المعاصى ، أو بزكاء العمل وزيادة الخير ، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته ، فهو العليم بمن اتقى المعاصى ومن ولغ فيها ودنّس نفسه باجتراحها .

والنهى عن تزكية النفس إنما يكون إذا أريد بها الرياء أو الإعجاب بالعمل ، وإلا فلا بأس بها ولا تكون منهيا عنها ، ومن ثم قيل : المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً » .

أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن مردويه وابن سعد عن زينب بنت أبى سلمة أنها سميت (بَرَّة) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تزكّوا أنفسكم ، الله أعلم بأهل البرّ منكم ، سموها زينب » .

أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا

أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) .

شرح المفردات

تولى : أى أعرض عن اتباع الحق والثبات عليه ، وأكدى : أى قطع العطاء من قولهم : حفر فأكدى . أى بلغ إلى كدية أى صخرة تمنعه من إتمام العمل ، ينبأ : أى يخبر ، وصحف موسى هى التوراة ، وصحف إبراهيم مانزل عليه من الشرائع ، ووفى : أى أتم ما أمر به ، أن لاتزر وازرة وزر أخرى : أى لاتحمل نفس حمل نفس أخرى يُرى : أى يراه حاضرو القيامة ويطلعون عليه تشريفا للمحسن وتوبيخا للمسىء ، يجزاه : أى يجزى سعيه يقال جزاه الله بعمله وجزاه على عمله وجزاه عمله ، المنتهى : أى المعاد يوم القيامة والجزاء حين الحشر ، تمنى : أى تدفع فى الرحم من قولهم : أمنى الرجل ومنى : أى صبّ المنىّ ، والنشأة الأخرى هى إعادة الأرواح إلى الأجساد حين البعث ، أغنى وأقنى : أى أغنى من شاء وأفقر من شاء ، والشعرى : هى الشعرى العبور وهى ذلك النجم الوضاء الذى يقال له مِرْزَم الجوزاء وقد عبدته طائفة من العرب ، وعاد الأولى : هم قوم هود وهم ولد عاد بن أرم بن عوف بن سام بن نوح ، وعاد الأخرى من ولد عاد الأولى ، والمؤتفكة هى قرى قوم لوط ، سميت بذلك ، لأنها ائتفكت بأهلها : أى انقلبت بهم ، ومنه الإفك لأنه قلب الحق ، أهوى : أى أسقطها فى الأرض ، غشاها : أى غطاها .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه علمه وقدرته ، وأن الجزاء واقع على الإساءة والإحسان ، وأن المحسن هو الذى يجتنب كبائر الإثم ، وهذا لايعرف إلا بالوحى من الله تعالى . ذكر هنا أن من العجب العاجب بعد هذا أن يسمع سامع ويرجو عاقل أن غيره

يقوم مقامه فى تحمل وزره و يعطيه جُعلا لذلك ، لكنه ما أعطاه إلا قليلا ووقف عن العطاء ، ثم وبخه على ذلك ، بأن علم هذا لا يكون إلا بوحى ، فهل علم منه صحة ما اعتقد ؟ كلا فجميع الشرائع المعروفة لكم كشريعة موسى و إبراهيم على غير هذا، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ، فمن أين وصل له أن ذلك مجزٍ له . .

قال مجاهد وابن زيد : إن الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس إليه ووعظه فلان قلبه للإسلام فطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين وقال له : أتترك ملة آبائك ؟ ارجع إلى دينك ، واثبت عليه ، وأنا أتحمل عنك كل شىء تخافه فى الآخرة لكن على أن تعطينى كذا وكذا من المال ، فوافقه الوليدعلى ذلك ، ورجع عما همّ به من الإسلام ، وضل ضلالا بعيدا ، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشحّ .

وقد ذكر سبحانه مانضمنته صحف إبراهيم وموسى :

(١) ألا يؤاخذ امرؤ بذنب غيره .

(٢) ألا يثاب امرؤ إلا بعمله .

(٣) إن العامل يرى عمله فى ميزانه ، خيرا كان أو شرا .

(٤) إنه يجازى عليه الجزاء الأوفى فتضاعف له حسناته إلى سبعمائة ضعف ، ويجازى بمثل سيئاته .

(٥) إن الخلائق كلهم راجعون يوم المعاد إلى ربهم ، ومجازون بأعمالهم .

(٦) إنه تعالى خلق الضحك والبكاء والفرح والحزن .

(٧) إنه سبحانه خلق الذكر والأنثى من نطفة تصب فى الأرحام .

(٨) إنه تعالى خلق الموت والحياة .

(٩) إنه هو الذى أعطى الغنى والفقر ، وكلاهما بيده وتحت قبضته .

(١٠) إنه هو رب الشعرى ، وكانت خزاعة تعبدها .

(١١) إنه أهلك عادا الأولى ، وقد كانوا أول الأمم هلاكا بعد قوم نوح .

(١٢) إنه أهلك ثمود فما أبقاهم ، بل أخذهم بذنوبهم .

(١٣) إنه أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود وقد كانوا أظلم من الفريقين .

(١٤) إنه أهلك المؤتفكة وهى قرى قوم لوط وقد انقلبت بأهلها ، وغطاها بحجارة من سجيل .

الإيضاح

(أفرأيت الذى تولى . وأعطى قليلا وأكدى . أعنده علم الغيب فهو يرى ؟) أى أعلمت شأن هذا الكافر ؟ وهل بلغك شأنه العجيب ، فقد أشرف على الإيمان واتباع هدى الرسول ، فوسوس إليه شيطان من شياطين الإنس بألا يقبل نصح الناصح ويرجع إلى دين آبائه ويتحمل ماعليه من وزر إذا هو أعطاه قليلا من المال، فقبل ذلك منه ، لكنه ما أعطاه إلا قليلا حتى امتنع من إعطائه شيئا بعد ذلك ، أفعنده علم بأمور الغيب ، فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه مايخاف من أوزاره يوم القيامة ؟.

وقصارى ذلك — أخبرنى بأمر هذا الكافر وحاله العجيبة ، إذ قبل أن سواه يحمل أوزاره إذا أدّى أجرا معلوما ، أأنزل عليه وحى فرأى أن ماصنعه حق ؟

ثم أكد هذا الإنكار فذكر أن الشرائع التى يعرفونها على غير هذا فقال :

(أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفّى) أى ألم يخبر بما نصت عليه التوراة وما ذكر فى شرائع إبراهيم الذى وفّى بما عاهد الله عليه ، وأتم ما أمر به ، وأدى رسالته على الوجه المرضى ، يدل على ذلك قوله : « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » .

قال ابن عباس : وفّى بسهام الإسلام كلها وهى ثلاثون سهما لم يوفها أحد غيره ، منها عشرة فى براءة « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » الآيات ، وعشرة فى الأحزاب « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » الآيات ، وستة فى « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... » الآيات ، وأربعة فى سأل سائل « وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » الآيات .

وتخصيصه عليه السلام بهذا الوصف لاحتماله مالم يحتمل غيره ، وفى قصة الذبح مافيه الغناء فى ذلك .

وإنما ذكر ماجاء فى شريعتى هذين النبيين فحسب ، لأن المشركين كانوا يدّعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم ، وأهل الكتاب كانوا يدعون أنهم متبعون مافى التوراة ، وصحفها قريبة العهد منهم .

ثم فصل ماجاء فى هاتين الشريعتين فقال :

(١) (أن لاتزر وازرة وزر أخرى) أى لاتحمل نفس ذنوب نفس أخرى ، فكل نفس اكتسبت إثماً بكفر أو معصية فعليها وزرها لايحمله عنها أحد كما قال : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » .

(٢) (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) أى كما لا يحمل عليه وزر غيره لايحصل له من الأجر إلا ما كسب لنفسه ، ومن هذا استنبط مالك والشافعى ومن تبعهما أن القراءة لايصح إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، وهكذا جميع العبادات البدنية كالصلاة والحج والتلاوة ، ومن ثم لم يندب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ولا حثهم عليها ولا أرشدهم إليها بنص ولا إيماء ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، أما الصدقة فإنها تقبل ؛ وما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ،

وصدقة جارية من بعده ، وعلم ينتفع به » فهى فى الحقيقة من سعيه وكدّه وعمله ، كما جاء فى الحديث : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولد الرجل من كسبه » والصدقة الجارية كالوقف ونحوه على أعمال البر هى من آثار عمله ، وقد قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » الآية ، والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدوا به واتبعوه — هو من سعيه ، فقد ثبت فى الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه من غير أن ينقص أجورهم شيئا » .

ومذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء أن ثواب القراءة يصل إلى الموتى إن لم تكن القراءة بأجر ، أما إذا كانت به كما يفعله الناس اليوم من إعطاء الأجر للحفاظ للقراءة على المقابر وغيرها — فلا يصل إلى الميت ثوابها ، إذ لا ثواب لها حتى يصل إليهم ، لحرمة أخذ الأجر على قراءة القرآن وإن لم يحرم على تعليمه .

(٣) (وأن سعيه سوف يرى) أى إن عمله سيعرض يوم القيامة على أهل المحشر ويطلعون عليه ، فيكون فى ذلك إشادة بفضل المحسنين ، وتوبيخ للمسيئين .

ونحو هذا قوله : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

(٤) (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) أى ثم يجزى بعمله أوفى الجزاء وأوفره ، فيضاعف الله له الحسنة ويبلغها سبعمائة ضعف ، ويجازى بالسيئة مثلها أو يعفو عنها كما قال : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

(٥) (وأن إلى ربك المنتهى) أى وأن مرجع الأمور يوم المعاد إلى ربك ، فيحاسبهم على النقير والقطمير ، ويثيبهم أو يعاقبهم بالجنة أو النار .

وفى هذا تهديد بليغ للمسىء ، وحث شديد للمحسن ، وتسلية لقلبه صلى الله عليه وسلم ، كأنه يقول : لا تحزن أيها الرسول ، فإن المنتهى إلى الله .

ونحو الآية قوله : « فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ . إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » إلى أن قال فى آخر السورة « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » وأمثال ذلك كثيرة فى القرآن .

(٦) (وأنه هو أضحك وأبكى) أى وأنه خلق فى عباده الضحك والبكاء وسببهما ، والمراد أنه خلق مايسرّ وما يحزن من الأعمال الصالحة ، والأعمال الطالحة .

(٧) (وأنه هو أمات وأحيا) أى وأنه خلق الموت والحياة كما جاء فى قوله : « الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » فهو يميت من يشاء موته ، ويحيى من يشاء حياته ، ينفخ الروح فى النطفة الميتة فيجعلها حية .

(٨) (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى) أى وأنه خلق الذكر والأنثى من الإنسان وغيره من الحيوان من المنى الذى يدفق فى الأرحام .

(٩) (وأن عليه النشأة الأخرى) أى وأن عليه الإحياء بعد الإماتة ، ليجازى كل من المحسن والمسىء على ما عمل .

(١٠) (وأنه هو أغنى وأقنى) أى وأنه تعالى يغنى من يشاء من عباده ، ويفقر من يشاء على حسب مايرى من استعداد كل منهما ومقدرته على كسب المال بحسب السنن المعروفة فى هذه الحياة .

وفى هذا تنبيه إلى كمال القدرة ، فإن النطفة جسم متناسب الأجزاء فى الظاهر ، ويخلق الله تعالى منه أعضاء مختلفة ، وطباعا متباينة من ذكر وأنثى ، ومن ثم لم يدّع أحد خلق ذلك ، كما لم يدّع خلق السموات والأرض كما قال : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » .

ونحو الآية قوله : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ؟ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ؟ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ » .

(١١) (وأنه هو رب الشعرى) أى وأنه تعالى رب هذا الكوكب الوهاج الذى يطلع خلف الجوزاء فى شدة الحر .

وإنما خصها بالذكر من بين الأجرام السماوية ، وفيها ماهو أكبر منها جرما وأكثر ضوءا ، لأنها عبدت من دون الله فى الجاهلية ، فقد عبدتها حِمْير وخُزاعة ، وأول من سن عبادتها أبو كبشة وكان من أشراف العرب ، وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبى كبشة تشبيها له به ، لمخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة ، وكان من أجداد النبى صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، ومن ذلك قول أبى سفيان عند دخوله على هِرَقْل : لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبى كبشة .

ومن العرب من كانوا يعظمونها ، ويعتقدون أن لها تأثيرا فى العالم ويتكلمون على المغيبات حين طلوعها .

وهى شعريان إحداهما شامية ، وثانيتهما يمانية وهى المرادة هنا وهى التى كانت تعبد من دون الله .

(١٢) (وأنه أهلك عادا الأولى) وهم قوم هود عليه السلام ، ويسمون عاد ابن إرم بن سام بن نوح كما قال : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ؟ » وقد كانوا من أشد الأمم وأقواهم وأعتاهم على الله ورسوله ، فأهلكهم « بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعة .

وقال المبرد : وعاد الأخرى هى ثمود ، وقيل عاد الأخرى من ولد عاد الأولى .

(١٣) (وثمود فما أبقى) أى وأهلك ثمود فما أبقى عليهم ، بل أخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر .

ونحو الآية قوله : « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » .

(١٤) (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) أى وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود ، وكانوا أظلم من هذين ، لأنهم بدءوا بالظلم ، و« من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » وأطغى منهما وأكثر تجاوزا للحد ، لأنهم

سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم بقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » .

وقد كان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه ويمشى إليه يحذره منه ويقول يابنى إن أبى مشى بى إلى هـذا وأنا مثلك يومئذ ، فإياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه لايتأثر من دعائه له .

(١٥) (والمؤتفكة أهوى. فغشاها ماغشى) أى وأهلك قوم لوط بانقلاب قريتهم عليهم وجعل عاليها سافلها ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود كما قال : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ » وهـذا ماعناه سبحانه بقوله : فغشاها ماغشى .

وفى هذا الأسلوب تهويل للأمر الذى غشاها به ، وتعظيم له .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) .

شرح المفردات

الآلاء : النعم واحـدها ألى (بالفتح والكسر) وتتمارى : تمترى وتشك ، والخطاب للإنسان ، هـذا نذير من النذر : أى إن محمدا بعض من أنذر ، أزفت : قربت ، والآزفة : الساعة ، وسميت بذلك لقرب قيامها ، أو لدنوها من الناس كما جاء فى قوله : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » من دون الله : أى من غيره ، كاشفة : أى نفس

تكشف وقت وقوعها وتبينه ، لأنها من أخفى المغيبات . والحديث : القرآن ، سامدون : أى لاهون غافلون من سمد البعير فى سيره إذا رفع رأسه ، فاسجدوا : أى اشكروا على الهداية ، واعبدوا : أى اشتغلوا بالعبادة والطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قبلُ ماجاء فى صحف موسى و إبراهيم ، من أن الإحياء والإماتة بيد الله ، وأنه هو الذى يصرّف أمور العالم خلقا وتدبيرا وملكا ، فيُفقر قوما و يغنى آخرين ، وأن أمر المعاد تحت قبضته ، وأن الخلق إذ ذاك يرجعون إليه ، وأن بعض الأمم كذبت رسلها وأنكرت الخالق فأصابها ما أصابها — قفى على هذا بالتعجب من أمر الإنسان ، وأنه كيف يتشكك فى هذا و يجادل فيه منكرا له ، وقد جاء النذير به ، فعليكم أن تصدقوه وتؤمنوا به قبل أن يحل بكم عذاب يوم عظيم قد أزف، ولا يقدر على كشفه أحد إلا هو ، فلا تعجبوا من القرآن منكرين ، ولا تضحكوا منه مستهزئين ، وابكوا حزنا على مافرطتم فى جنب الله ، وعلى غفلتكم عن مواعظه وحكمه التى فيها سعادتكم فى دنياكم وآخرتكم ، واسجدوا شكرا لبارئ النسم الذى أوجدها من العدم ، واعبدوه بكرة وعشيا شكرا على آلائه ، وتقلبكم فى نعمائه .

الإيضاح

(فبأى آلاء ربك تتمارى) أى فبأى نعم ربك عليك أيها الإنسان تمترى وتشك ؟

ونحو الآية قوله : « يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ؟ » وقوله : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً » وقوله : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

والمراد بالنعم ماعدده من قبل ، وجعلت كلها نعما ، و بعضها نقم ، لما فى النقم من المواعظ والعبر للمعتبرين من الأنبياء والمؤمنين .

والخلاصة — إنها كلها دالة على وحدانية ربك وربو بيته ، فنى أيها تتشكك على وضوحها للناظرين ، ووجوه دلالتها للمعتبرين ؟

(هذا نذير من النذر الأولى) أى إن محمدا صلى الله عليه وسلم منذر من ربه من حاد عن طريق الهدى ، وسلك طريق الضلال والهوى ، بسىء العواقب ، فى العاجل والآجل ، وهو كمن قبله من الرسل الذين أرسلهم ربهم لهداية خلقه ، فكذبوهم فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وحل بهم البوار والنكال كفاء تكذيبهم وجحودهم آلاء ربهم ، ونعمه التى تترى عليهم .

ونحو الآية قوله : « إِنِّى نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » وقوله صلى الله عليه وسلم « أنا النذير العُرْيان » أى الذى أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس شيئا ، وبادر إلى إنذار قومه وجاءهم مسرعا .

(أزفت الآزفة) أى اقتربت الساعة ، ونصب الميزان ، وستجازى كل نفس بما عملت من خير أو شر ، فاحذروا أن تكونوا من الهالكين ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون .

ونحو الآية قوله : « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » وفى الحديث « مثلى ومثل الساعة كهاتين » وفرق بين إصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام .

(ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس هناك من يعرف وقت حلول الآزفة إلا هو ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل أن تأخذكم الساعة بغتة وأنتم لاتشعرون ، فتندموا ولات ساعة مندم ، وجِدّوا للعمل قبل حلول الأجل .

وقد أشار فى هذه الآيات إلى أصول الدين الثلاثة :

(١) وحدانية الله بقوله : (فبأى آلاء ربك تتمارى ؟) .

(٢) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : (هذا نذير) .

(٣) إثبات الحشر والبعث بقوله : (أزفت الآزفة) .

ثم أنكر على المشركين تعجبهم من القرآن واستهزاءهم به وإعراضهم عنه فقال: (أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون) أى أفينبغى لكم بعد ذلك أن تعجبوا من هذا القرآن وقد جاءكم بما فيه هدايتكم إلى سواء السبيل ، وإرشادكم إلى الطريق المستقيم ؟ وكيف تسخرون منه وتستهزئون به ، ولا تكونوا كالموقنين الذين وصفهم الله بقوله : « وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا » وكيف تلهون عن استماع عِبَره ، وتغفلون عن مواعظه ، وتتلقونها تلقى اللاهى الساهى المعرض عما يسمع ، غير المكترث بما يلقى إليه .

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة قال : لما نزلت « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ » الآية بكى أصحاب الصُّفَّة حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينهم بكى معهم ، فبكينا ببكائه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى ، ولا يدخل الجنة مصرّ على معصية ، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

ثم بيّن مايجب عند سماع القرآن من الإجلال والتعظيم فقال :

(فاسجدوا لله واعبدوا) أى فاخضعوا وأخلصوا له العمل حنفاء غير مشركين به ، فهو الذى أنزله على عبده ورسوله هاديا و بشيرا لكم لعلكم ترحمون ، ودعوا ما أنتم فيه من عبادة الأوثان والأصنام التى لا تغنى عنكم شيئا ، فلا تدفع عنكم ضرًّا ، ولا تجديكم نفعا كما قال آمرا رسوله أن يقول لهم: « مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » .

ماتضمنته السورة الكريمة من الأسرار والأحكام

(١) إنزال الوحى على رسوله .

(٢) إن الذى علمه إياه هو جبريل شديد القوى .

(٣) قرب رسوله من ربه .

(٤) إن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل على صورته الملكية مرتين .

(٥) تقريع المشركين على عبادتهم للأصنام .

(٦) توبيخهم على جعل الملائكة إناثا وتسميتهم إياهم بنات الله .

(٧) مجازاة كل من المحسن والمسىء بعمله .

(٨) أوصاف المحسنين .

(٩) إحاطة علمه تعالى بما فى السموات والأرض .

(١٠) النهى عن تزكية المرء نفسه .

(١١) الوصايا التى جاءت فى صحف إبراهيم وموسى .

(١٢) النعى على المشركين فى إنكارهم الوحدانية والرسالة والبعث والنشور .

(١٣) التعجب من استهزاء المشركين بالقرآن حين سماعه ، وغفلتهم عن مواعظه .

(١٤) أمر المؤمنين بالخضوع لله والإخلاص له فى العمل .

obeikandi.com